

المقامة الاولى تسمى الصحراوية

تتضمن أخبار الشيخ ابن عيسى أنه كان سخارا و جولانه و تلطامه في الصحراء

حكى امحمد بن العربي قال كنت في زمان سعيد الكوكب، و حال نلت فيه المطلب، في اكتساب مال غير متعب، فقسى قلبي عن البرعة، و نفرت نفسي حلاوة القناعة، فكمست صارمية و قصدت التجارة، ناويا للغنا و العمارة، فشرعت أحضر الأسواق، و أشاهد الأرزاق، فلما دقت بنة العسارة، وجدت الريح ياخذوه الصحارة، و اختلطت مع رفقة رايمين الاسفار، لنواحي الفيافي والأقفار، فاعهدنا العهود و العدول، و أوجدنا الإبل لحمل الزاد و الحمول، و دخلنا الصحرة بالفضول، فبقينا مدة نحن نتخير في عصا الجلب، و نميز في اغتنام الفوائد بالغلب، إلى أن سمعنا في يوم خبرا يطيش النفوس، و يفر منه الصابر و العبوس، بأن قيل أن أبا عمارة، قد نافق باعلامه، و طاح على الطرافي بازدحامه، و أخذ اولاد ابراهيم و حوض الامامة، فلما تحققنا بهذا العبث، و خشينا الهلاك في اللبث، فافترقت رفقتي قبل النفث، فمنهم من قصد المنقار الفوقاني، و منهم من وعد المنقار التحتاني، و منهم من توجه لابي سمغون، و منهم من بقى في العقلة متأملا فيما يكون، فالتفت لما سمعت هذه البلية، ودخلت لبلاد المشريّة، فانخزنت فيها كما ينخزن المخوف، و لبدت كما يلبد المسوف، فلما تطالعت عن أهلها، و تعرّفت بسكانها، تهمدنت روعتي، و سكنت مهجتي، فبينما أنا في يوم مجّع حانوت قرداش، و قلبي متفكر في الأمور فتأش، إذ رايت زملا من السخارة قد سرط، و تحيَّج إلى فحص البلاد و انخرط، فعلمت أنه أتى من المغرب، و حصل لي في المظنون أن فيه بعض المغرب، فلما احمرّ عنق الحمام، و ازدهرت نجوم الأكمام، دخلت كنفه السخارة كما يدخل الجوساس، وانا في حالي خايف من العساس، إذ بي جزت على حملين موضعين، و بينهما رجلين متسامرين، فدنوت منهما، لأسمع كلامهما، و إذ برجل يقول لصاحبه، و متصّع في حوافره، و هو يقول اعلم يا ولدي إنك إذا بليت بنوبة السخرة، و عنيت لنقطع فيافي الصحرة، فكن صبورا على كيد

الزمان و محنه، ولا تكلف على نفسك جدّ السير و نحوه، و لا تجعل دابّتك في أوّل الرّحل و لا في آخره، ثم إنك كن أديباً مع السبّاييس، لتتجى من بعض النجاييس، قال الرّاوي فلماً سمعت ما نفث، و عيت ما بحث، التبتت بالترديد و الأوهام، و صرت كبلقيس لعرشها في الإستفهام، فعلمت تلك الموضع، و رجعت إلى الموضع، و بتّ طول الليلة مقلّب البال، مهوّل الحال، فلماً أنعمت الليلة بصباحها، و شعشت الشمس بوزارها، خرجت لأفقد المكان المعلم، ليبرئ القلب المؤلم، فوجدت شيخنا ابن عيسى قد رقّ جلده، و اصفر لونه، ثم أنّ لحمته هزلت، و لحيته تكشردت، فصفقت يدي فرحة لنظرتي إليه، و عزمت للتدّتي بالسلام عليه، فسلمّ عليّ و أنشد ما حفاه، و تغرغرت بالدموع عيناه :

لا تعجبين من سخّار إذا رأيته * جور الزمان عليه طال ما اختدم
و صاحب العيال إن عال عيشه * ما يقتضي رأيه و حال حاله فاقتحم
لما اولقى بفعله ما يسوءه * ردّ عليه العقل بالندامة فانندم
ما ذا تقل يا بن العربي فيما نظرته * من وصف شيخ شاق خلاصه وانتهم

قال ابن العربي فلماً اسلب القلوب بما في البيوت، و أوضح حاله بالنعوت، قلت له طب نفسا و قرّ عيناً، فسأخلصك مما أنت فيه بلا منا، ثم إني جبدت الصرّة، و حسبت من الدور عشرة، و قلت له خذ هذه الكموسة، و استوجه بها عند قايد الترموسة، فقبضها من يدي و لالت بشرته، و نشت الحمورة وجهته، و مطمط شواربه و أنشد:

لولاك لجلت الصحرة طرا بأسرها * جزيت عني خيرا يا دو المجد و الكرم
فلاشكرنك ما حييت في المواطن كلها * و لاذكرنك في محافل العرب و العجم

ثم أنه فرّ كما يفرّ الفرحان، أو المسرّح من أوثاق الأحزان، و جعل يدور كأنه يخمل في
حوايجه، وثرنه يتأمل كيف يسلك بخدعانه، ثم لفت وجهه إليّ، و قال لي أنظرني و لا
تغفل عليّ، فإني أذهب إلى حاكم المحلّة، ليسرّحني من هذه المحنة، و سوف أنقلب إن
شاء الله فارحاً إليك، و اعتكف بالنشاط عليك، و تبسّم في وجهه كما يتبسّم المريب، و
تبيسّس بفرّته كما يتبيسّس الذيب، ثم قلت لأحد معي أذهب خلفه، لتتظر ما يقع له، فذهب
من ورايه ماشياً، و بقيت إياهم مستتياً، إذ بالرسول رجع و بيده ورقة مطويّة مصنع، فقلت
له ما وقع، للأصطل المهرفم، فقال لي خذ ما يمرّض القلب و منه ينتقم، فمدّ لي الورقة، و
قرأتها بحمقة :

قل	للي	رسلك	يصبر	* على	محنة	الغدر
و	هو	فمه	يهذر	* و	اعيونه	تقترف
فبن	عيسى	سافر	* في	الدّهمة	و	فر
و	خلاك	امغير	* و	امحان	الغربة	تترادف

قال ابن العربي فلما قرأت البيتين، و حققت الصنفين، صرت كمن اشترى الهّم بالدرهم،
و ضيع الرفقة و انعدم.